تمهيد.

إنّ الدارس المتعمّق لتاريخ الفكر الجزائري تستوقفه أسماءا لامعة لفلاسفة ومفكرين تركوا بصمتهم في مسار الفكر الفلسفي، ولعلّ من أبرز هؤلاء المفكر والفيلسوف القديس أوغسطين صاحب فكر فلسفي متميّز استطاع من خلاله صياغة نموذج فلسفي يحاكي اللاهوت المسيحي، من هنا نتساءل: **ماهي أهم الأسس التي قام عليها فكر القديس أوغسطين؟ وماهي ملامح فكره ؟؟**

1. سيرته وفكره.

ولد القديس أوغسطين في مدينة تاغست (ولاية سوق اهراس حالياً) سنة 354م من أب وثني وأم مسيحية متدينة متمسكة بالتعاليم والمعتقدات المسيحية، أمه مونيكا لعبت دورا بارزاً في حياته، مرّ القديس أوغسطين بتجربة شك مؤلمة انتقلت به كأمواج البحر من معتقد لآخر، ومن وجهة إلى وجهة أخرى، وقد وصف عبد الرحمن بدوي أزمة أوغسطين المشتت في هذه الفترة " بالأزمة الحاسمة "، وهنا يقول: " فقد شعر بنفس ممزقة بين إرادة الخير وإرادة الشر، بين مطالب الروح ومطالب الجسد."[1]

بدأ أوغسطين وثنياً على دين أبيه ثم تحول إلى المانوية وأخيرا إلى المسيحية، فقد كانت تراوده تساؤلات عدة حول الحياة والقدر والمصير والنفس والروح...وغيرها من القضايا الفكرية والفلسفية والتي وجد لها إجابات في اللاهوت المسيحي مبرراً الكثير من المسائل عقلياً بالاستفادة من الفلسفة اليونانية ممثلة في فلسفة أفلاطون، وبالرغم من أنه يحسب على الفكر الأروبي الغربي إلا أنه جزائري الفكر والرؤية والتصور، من الضروري دراسة فكره وفلسفته كتراث فكري جزائري.

يعتبر القديس أوغسطين أحد أعمدة الفكر الجزائري في العصر القديم، كما يمكن اعتباره أحد أقطاب الفلسفة المدرسية في العصر الوسيط كان له الأثر الكبير في تاريخ الفكر الفلسفي،

[1]– عبد الرحمن بدوي: **موسوعة الفلسفة ج1**، المؤسسة العربية، بيروت لبنان، ط1، 1984، ص248.

عرّف بدفاعه عن المسيحية، كما تقلد عدة مناصب في الكنيسة الكاثوليكية حتى عيّن أسقفاً لمدينة هيبون (عنابة حالياً) سنة 391م، وظلّ يشغل هذا المنصب الديني الكبير قرابة 40 عاماً.[1]

ترك القديس أوغسطين تراثاً فكريا وفلسفيا تنوع بين اللاهوت والفلسفة والأدب والتاريخ والأخلاق والسياسة، ولعلّ من أبرز مؤلفاته:

1- كتاب الاعترافات: وهو كتاب ألّفه أوغسطين سنة 401 م، وهو مؤلف مشهور في الآداب العالمية لسمو أسلوبه، وقوة تأثيره، وقوة ودقة التحليل النفسي، وعمق النظرة الفلسفية، وقد تناول فيه سيرته الذاتية وترجمة لحياته، والمراحل التي مرّ بها خاصة مرحلة الشك التي عاشها بحثاً عن الحقيقة، ويعتبر هذا المؤلف أول كتاب في السيرة الذاتية.

2- كتاب مدينة الله: وهو مؤلف مهم جدا استغرق في تأليفه أربع سنوات، تضمن آراؤه الفلسفية، فيه دعوة إلى المسيحية والدفاع عنها ضد الوثنيين الذين يزعمون أن المسيحية كانت سبباً في انهيار الامبراطورية الرومانية، وهو يرى أن تاريخ البشرية وليد الصراع والتنافس بين مجتمعين المجتمع الديني (مدينة الله)، والمجتمع الدنيوي (مدينة الشيطان).

3- أخلاق الكنيسة الكاثوليكية وأخلاق المانويين: وقد كتب هذا الكتاب بعد العودة إلى الوطن حيث وجّه همّه إلى مناهضة المبتدعة والرد على أطروحاتهم ومزاعمهم في القضايا العقائدية المختلفة.

4- كتاب الحرية: وهو مؤلف شرح فيه القديس أوغسطين موضوع الحرية من زاوية يبدو فيها الطرح اللاهوتي المسيحي جلياً حيث بيّن القواعد العامة للحرية.

5- الأسس العقلية للإيمان: وفيه تحدث أوغسطين عن الإيمان أي اللاهوت في مقابل العقل داعياً إلى التمسك بالمسيحية والإيمان بها على اعتبارها الخلاص من الدنيا وبلوغ السعادة في نظره .[1]

[1]- القديس أوغسطين: **الإعترافات** ، ترجمة ، زكرياء إبراهيم: مكتبة الأسرة (تراث الانسانية)، 1994، ص14.

2. مرجعيات الفكر الفلسفي للقديس أوغسطين.

قام الفكر الفلسفي للقديس أوغسطين على عدة أسس نذكر منها:

1- تشكّل الفلسفة اليونانية وعلى وجه التحديد فلسفة أفلاطون الأساس الذي قام عليه الفكر الفلسفي للقديس أوغسطين حيث تعرف على الفلسفة الأفلاطونية عبر الأفلاطونية المحدثة (مؤسسها أفلوطين) ومنها نهل الكثير من الأفكار التي ساعدته على فهم العديد من القضايا في اللاهوت المسيحي على غرار قضية وجود الله، خلود النفس، مصدر الشرّ، الحرية، السعادة...وغيرها، ويعود اهتمام أوغسطين بفلسفة أفلاطون لقربها الشديد من تعاليم المسيحية، يقول أوغسطين: " وإذا كان الحكيم بنظر أفلاطون من يتشبه بالله ويعرفه ويحبه فيمتلكه ويسعد حقاً، فهل من حاجة بعد مناقشة التعاليم الأخرى، وليس من تعليم يقارب تعليمنا أكثر من تعليم أفلاطون." [2]

2- إنّ الشك الذي مرّ به أوغسطين شكّل الأساس الأهم الذي منه انطلق فكره الفلسفي، حيث اعتقد في الشك وجعله وسيلة للخلاص من وساوسه ومتاعبه المعرفية والعقائدية، كما مارسه بصفة ذاتية مع نفسه حيث شكّ في كل المعارف والتعاليم، شك منهجي أراده منطلقاً في بحثه عن الحقيقة حتى استقر به المقام على المسيحية، فكان اعتناقه لها عن تفكير وبحث وتدبّر وليس اعتقاد بالعاطفة أو الوراثة.

3- إنّ للبيئة الثقافية في الجزائر أنذاك أثر كبير على فكر الرجل وفلسفته وهو الرجل الإفريقي الشهم الذي له خلفية افريقية رومانية، وتحديداً ثقافة الأقاليم المستعمَرة الثرية التي

---

[1]- كامل محمد محمد عويضة: **أوغسطين فيلسوف العصور الوسطى** ، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط1، 1993، ص33-34-35.

[2]- القديس أوغسطين: **مدينة الله المجلد الأول** ، ترجمة الخور أسقف يوحنا الحلو، دار المشرق بيروت لبنان، ط2، 2006، ص371.

طالما تمتعت بالسلام والرخاء وقطنوها أناس مثقفون جدا زينوا مساكنهم بالفسيفساء والتماثيل البديعة.[1]

وقد كان أوغسطين رجل شرقي متفتّح باحث عن الحق والخير يريد أن يهتدي ثم ينير الطريق للبشرية بكتاباته ورسائله من خلال فكر فلسفي تأسس على المعتقد المسيحي.

4- تأسست فلسفة القديس أوغسطين على الإيمان المسيحي، حيث لم يفتح أوغسطين المجال للعقل إلا بعد الإيمان لأنه في نظره هو الطريق السالك للحقيقة، لذلك أطلق شعاره الشهير" آمن ثم تعقل "، من هنا يُحسَب أوغسطين على اللاهوتيون الذين دفعوا عن اللاهوت في مقابل العقل، ففي نظره ليس هناك مصدر آخر يقدّم لنا الحكمة كاملة، ويقدّم لنا الله في أعظم صوره مثل الإيمان.[2]

3. سمات الفكر الفلسفي للقديس أوغسطين.

تتميز فلسفة القديس أوغسطين بعدّة سمات وخصائص نذكر منها:

1- إنّ فلسفة القديس أوغسطين فلسفة لاهوتية بنيت على فكرة البحث عن الحقيقة الكاملة والمطلقة أي السعادة الحقيقية وهي التي أتعبت أوغسطين وأرهقت فكره معتقداً أن السعادة القصوى في الزهد والورع والتقوى والإيمان، وهنا يقول: " إنّ نعمتك هي التي تجعلنا نعرف الحكمة ونتعمق فيها." [3] أي أن الإيمان طريق للحكمة والسعادة.

2- لقد كانت فلسفة القديس فلسفة نقدية انتقد العقائد والملل والاتجاهات الفكرية المخالفة للمسيحية ساعياً لبناء نسق فلسفي متكامل قائم عل اللاهوت المسيحي في نقائه وصفائه بعيداً عن الشوائب والخرافات والبدع يتماشى والروح الإنسانية التواقة للخلاص والنجاة.

---

[1]- هنري تشادويك: **أوغسطينوس مقدمة قصيرة جداً** ، ترجمة أحمد محمد الروبي، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، ط1، 2016، ص13.

[2]- مرجع سابق: كامل محمد محمد عويضة: **أوغسطين فيلسوف العصور الوسطى** ، ص36.

[3] - مرجع نفسه ، ص127.

3- تعتبر فلسفة القديس أوغسطين فلسفة توفيقية بين اللاهوت والعقل بالرغم من تقديمها للإيمان على العقل، لكن رفع من شأن العقل ودافع عنه خاصة على المستوى الذاتي، فلا يعقل البحث عن الحقيقة دون العقل، إذ أن أوغسطين ميّز بين العقل والنص من حيث المبدأ لا غير، إلا أنه من حيث العمل والسلوك والاعتقاد الفعلي لا يضع هذا التمايز بينهما، بل جمع بينهما، ففي المسيحية يتحد العقل مع القلب، والنظر مع المعاينة، ويرتبط القول باللسان مع الإيمان القلبي.[1]

4- إنّ فلسفة القديس أوغسطين فلسفة عميقة قائمة على مرجعيات صلبة تنطلق من الإيمان المبرر عقليا بالاستعانة بالفلسفة الإغريقية، ولكن المبرر تاريخياً، من هنا لجأ أوغسطين إلى دراسة كل المعتقدات الدينية تاريخياً مبيناً تناقضاتها وضعف منطلقاتها وزيف أفكارها وتعاليمها مدافعا في الوقت نفسه عن المسيحية، فقد وظّف التاريخ كدعامة للدفاع عن المسيحية، من هنا يرى مثلا أن ما يميّز المسيحية عن الوثنية أن الأولى دعامتها التاريخ، أما الثانية دعامتها الأسطورة.[2]

الخاتمة.

نستنتج في الأخير أن القديس أوغسطين فعلا مفكر وفيلسوف من الطراز الأول استطاع صياغة نسق فكري وفلسفي متكامل ينسجم وعقيدته المسيحية، انطلق من أهم قضية في عصره العصر الوسيط وهي مسألة اللاهوت (الإيمان) ليؤسس تصوراً جديداً يصبح فيه العقل خادماً للإيمان لتحقيق المبتغى من الحياة وهي السعادة الأبدية.

[1]- مرجع نفسه، ص37.

[2]- زينب محمد الخضيري: **لاهوت التاريخ عند القديس أوغسطين** ، دار قباء القاهرة مصر، ط1، 1997، ص57.